فخر الدين

١٦٣٥ - ١٩٣٥

لمرور ثلاثمائة عام على مقتله في الاستانة

بقلم سعيد عقل

يا اندفاعَ الامواج في شاطئ البوسفور ، رفقاً بذكريات الامير !
ببقايا حُلم تقوّف بالصبح ، وألوى ؛ فالصبحُ مأتمُ نور ؛
فيه من وثبة الجريح الى الثأر ، وفيه من احتضار النسور .

...

هو فخرُ الدين ، الفتى ، يقرأ الأيامَ في قولِ خازنيّ وقورِ ؛
فيرى الامسَ من مذابحَ حمرٍ ، نافراتٍ على ممرّ الدهورِ ؛
جَدُّه ، قِبلةُ الشموس ، قتيلٌ ؛ وأبوه ، دُنيا اسى ، في حفيرِ ؛
والدروز الأباة يغويهم السيفُ ، فيلقونه رحابَ الصدورِ ؛
واذا وجهُ عين صوفر اشلاءٌ ، وآفاقها بلون الزفيرِ .
فيغضّ الاميرُ طرفاً ، ويخفي ، خلفَ جفنيه ، هزّةً للعصورِ .

...

بسم الدهرُ للشريد ، وشاد العرش ، ظمآن ، للامير الصغيرِ .
أفقُ لبنانَ ضيّقٌ ، وامانيه رحابٌ مدى شرود الضميرِ .
هزّ فخرَ الدينِ انقباضُ حدودٍ ، فرآها على شفا المعمورِ ؛
فاستثار الابطالَ يمضون للمجدِ ، غضاباً ، ولامتشاق البدورِ .
سال فيهم شاطئ طرابلس ، وانشقّ ، تيهاً ، عن أنجمٍ في مسيرِ ؛
وتداعى عرشُ ابنِ سيفا الى الترب ، وخلّى الصدى بصمّ الصخورِ ،
فاذا يُنعتُ البنون الى الموج ، يحتونها قنًا في الهديرِ .
وتنادوا من الشمال الى زحلة ، يترفدنها في الكرورِ ،

فيهبّ الابطال منها ، ولا حدّ لوثب الرحليّ ، يوم الظهور .
دان مجد الفريخ ، دان شفا الاردنّ ، في وثبة ، ونفخة صور .
عصبةٌ من فوارس حملوا البيض لقبر المسيح ، حملَ النذور ،
قيل : حجٌّ ، وقيل : شوقُ سيوفٍ حدُّها ، في الطموح ، حدُّ النور !

. . .

كاد وجهُ الامير يَحجب من مجدٍ عريق ، على السهى منشور !
كاد لبنان يلتقي « العاليَ البابَ » بزندٍ سمحِ الفتول ، قدير !
فتلوّت استانةٌ : روعةَ الواجف هزّته غصّةُ المقهور .
حلت بالشواظ يسطر لبنان ، وبالكرّ في العديد الوفير ؛
فاذا البرّ من غبار عباب ، واذا البحر من دخان حرور ،
من عدى بكر العتاد ، تكاد الارض ترنو السهم بنفور .
لم يرعه التقاؤهم ، وعلى الكفّ فؤادٌ له حبيبُ الكرور ؛
راعه حُلمه تحطّمه الاقدار ، طفلًا في هدهدات السرير ،
فامّحى عن عداته ، يكظم الانفاس خوفاً على الفضاء الكبير .

. . .

بينما عُدّة الامير عليّ تتعزّى بابن الخيال الكبير ،
كان في مقلب النهار أميرٌ مجهدُ الطرف ، مجهدُ التفكير ،
يتلوّى على الخريطة ، حُلماً شائماً في خطوطها ، والسطور ؛
متعب ، يفجر الأسى محجريه ويروّي مزقّ الفم المحرور ،
تعتريه ، شوقاً الى مجد لبنان ، ارتعاشاتُ مطلبٍ مأسور ،
ويودّ الوصولَ للارز بالوهم ، فيجري به الى البوسفور .
واذا بالصباح يسبق الوقت ، ويطفو في قلبه الموتور ،
فيخال الخريطة ارتقصت ، زهراً ، وراحت من كفّه في سرور !

. . .

حملته ، الى شواطئ لبنان ، اواذيُّ من منًى وحبور ،
فالتقاهُ البلاط ، مولًى سيحمي جبهةَ الترك من عدوّ مغير ،

شفيتْ من طبوحه مقلتاهُ ، وتعزّى من الخيال الخطير .
لو رأوا في البلاط نورًا ، لكبّوا ، في خضمّ البوسفور ، بازّ القصور !

. . .

داس في أرضه الاميرُ ، فراح الجبل الميتُ في ثياب النشور ،
وسرت رعشةٌ بلبنان هزّت من ذرى أرزه الى صخر صور :
أمّة تستردّ مجدًا سليباً ، واميرٌ يلهو مع المقدور .

يا حجارًا خوافت اللون في لبنان ، قصيّ كتابَ عهدٍ نضير !
قلعاً كنتِ ، ضاحكاتٍ من النجم ، حساناً ، ممرّدات الخصور ،
افتِ تيرون ! انتِ عجلون ! انت المرقب السمح ساطرًا بالسعير !
انا ما دستُ مرّةً حجرًا منك ، ولم انتفض لذكرى الاميرِ !
حدّثي ! حدّثي ! فقي لونك الناحل اطيافُ جيشنا المنصور !

سالت الارض بالخيول الى الاردنّ ، سالت مع الخيال النفورِ ،
تُرع الرايَ خافقاتٍ ، من العاصي الى الميت ، ضاحكاتِ النشورِ ،
ومن الابيض الكبير الى تدمر ، وقراقةَ السنى والحبورِ .
ضحكت ، يومَ عنجر ، الأسلُ السمرُ ، وشكّت قلب الضحى المستطيرِ .
أمّةٌ وفرةُ العتاد تلاقي باقةً من شبابنا المسرورِ .
اجفل السهلُ للطعان ، واغضى وجهُ حرّمون للدم المهدورِ ؛
ينثر السيفُ خصمه ، فتخال الانجمَ الحمر من حُمام نثيرِ ،
وتخال الاميرَ ، في جيشه الحابس ، يمشي على ابتسام الثغورِ .
ظلّ صوت الطعان يرتجّ في الليل ، الى سفرة الصباح الطريرِ ،
فتملّاه مصطفى ، قائد الترك ، حزينَ السنى ، حزين السفورِ ؛
ما رآه الاميرِ الّا الثقاه بسخيّ في كفّه ، موزورِ ،
ضربةٌ سمحةٌ كفت ، فارتمى الفارس في قلب جيشه المذحورِ ؛
وأطلّت شمسُ الصباح ، فحيّت جند لبنان بالشعاع الغريرِ .
لم يمت مصطفى . فقال ابن معن : « رح الى الثور ، لست لي بأسيرِ ،

انت حرّ ! فمدّ للشمس طرفاً واملأ العين من سنى التحرير!»

...

نكست هامها الجبالُ ، ودان الشرقُ للمستقلّ فيه ، الجديرِ .
وجه فخر الدين انتفاضة قلب مستهام الى الخيال ، كبيرِ ،
قدّهُ من جبال لبنان ، في الليل ، ومن ضحكة القنا في النحورِ .
يعتلي صهوة الجوادِ عبوساً ، فعلى الشرق رعشة المخمورِ .
ويذوب الصهيلُ في سمع استانة ، نجوى « جدا » ونجوى نفيرِ .
ايخلّي مراد الرابع العرش على وهدة الردى والشفيرِ ؟
ايخلّي الاميرَ ، تملوكه ، امسِ ، يشكّ البنود في البوسفورِ ؟
حُلمٌ في خيال لبنان رحبٌ ، رعرعته فتيقيا في الصدورِ :
سفنٌ تمخر العباب وتبقى الهرقليّات ، خلقها في قصورِ ،
تقصد القطب ، والجزائر في القطب ، وتأتي مناجاً في بكورِ ،
وتدور اعتزازةً حول بكر الارض ، تجني النضار من أوفيرِ ،
تزرع المُدْنَ في الشطوط ، وتنشي مَن يهزُّ القنا بوجه القديرِ .
ويتيه السلطان في حُلم لبنان ، فيلوي على جسام الامورِ .

...

حملة اليوم ، لو تكون للبنان ، لأودى بعزّة المعمورِ !
من رجالٍ في سرحة الفكر عدّا ، وسفنٍ في منتهى التقديرِ .
فاللهيبُ ، اللهيبُ يطرد لبنان ، ويرفضّ بالردى والدثورِ ؛
وحوالي الأمير بن كاظم قرّا ، ومن حاسدٍ أتيّ الشرورِ ،
أعينٌ يخنق السنى لفتةٌ منها ، فتغضي على مرادٍ ضريرِ ،
ما أحسّت بالترك يولونها القوّة ، الّا تغجّرت عن قبورِ .
العدى في رجاله ، والعدى الترك مجور اليه إثرَ مجورِ ،
يلتقيهم لبنان بالعصبة البطل يضون للاطمان الاخيرِ ،
فيموتون عن نفوس كبارٍ ، وينامون مثلَ طرف قريرِ .
قلعةٌ إثر قلعةٍ تسلم الابراج ، الّا تيرون ، اخت النسورِ ،

مقل الحلم لم تشأ ان تداعى ، هُزُءا بالزمان والمقدورِ ،
لم يدعها الامير تسقط ، لولا السمُّ في مائها الزلال النميرِ ،
فرعاها بطرفه ، ورعته ، في وَداع أدمى غناء الطيورِ ؛
ومضى يسحب القيود باستانة ، مخضوبةً بحُلم كبيرِ !

. . .

يا اندفاع الامواج في شاطئ البوسفور ، رفقاً بذكريات الامير !